الفلوس والبركة والعودة إلى حنان الكتاكيت

عبد الحكيم حيدر

في ألف ليلة وليلة المصرية، والتي لم تُطبع، حتماً ستجد الليالي الطويلة المحكية عن حنان الكتاكيت، وكيف أنقذ الكتكوت الذي كان صغيراً الحاجّة لواطف، من الفقر والحاجة وبرد الشتاء، حينما كبرت كلّ كتاكيتها، وذهبت بهم إلى السوق، بالقرب من باب قصر الملك الخلفي في يوم مطير. لاحظ أنّه لا بد أن يكون ذلك اليوم مطيراً، كي تقع الحاجّة لواطف بكتاكيتها التي كبرت مرة أو مرتين، كي يتعطّف عليها الناس ويلقوا لها ديوكها ثانية بعدما طارت، حتى نادى عليها خادم الملك، بعدما لمحها الملك بفراسته من شرفته، ولمح اللؤلؤة في حوصلة ديكٍ من ديوكها. لكنّ الحاجّة لواطف خجلت أن تدخل على الملك بالطبع بديوكها هكذا، فركبت ديوكها تحت سلم القصر، وما كان من مستشار الملك، بناء على أوامره له، إلّا أنّ أخرج اللؤلؤة من حوصلة الديك، من دون أن يؤذي الديك بأيّ أذى، وبدسّها في قطعة من حرير، ويقدمها للملك في أثناء، جلوسها بالشرفة معه، بعدما طلب لها عصير العنب والرمان واللوز أيضاً، وإذا بالملك يُفرد اللؤلؤة أمام عيون الحاجة لواطف فوق قطعة الحرير، ثم بدأ يتكلم معها في أمر كتاكيتها، فاستعجبت الحاجّة لواطف، وقالت لنفسها: كيف ترك الملك كلّ أقطار ملكه، بعدما عدّوها وأحصاها، ولم يغب عنه حتى أمر كتاكيتي؟

قرأ الملك ملامحها وأفكارها في اللحظة، وقال لها: أنا أعرف كلّ أمور كتاكيتك، منذ كانوا صغارا تحت الشمس، حتى وأنتِ تحمينهم من الحداة، حتى أنّني رأيت بأم عيني كتكوتك وهو يلتقط لؤلؤة من شبكة صيّاد فقير، لكنّه كان ظالماً، فتركتاها في حوصلة كتكوتك، حتى كبر وصار ديكاً يصيح... فزاد استغراب الحاجّة لواطف، فغرد لها الملك اللؤلؤة، ثانيةً، أمام ناظريها فوق قطعة الحرير، وثمنها لها بخمسين ألف دينار، لأنّها كانت من النوع الحرّ. وربط المستشار الدنانير في صرّة للحاجّة لواطف، فبكت الحاجّة لواطف بالطبع في حضرة الملك، وتذكّرت زوجها المسكين الذي حارب مع والد الملك في الشام جندياً ولم يعد، ولا عرفت عنه أيّ خبر. وتذكّرت بالطبع ولديها الفقيرين، وقد أحاط بهما الفقر من كلّ جهة من سنوات بعدما غاب الأب، فأمر للابن الأصغر بمركب صيد صغير، وعيّن الثاني بقلم الشرطة، ثم طلب منها أن تحكي للناس عن أمر كتكوتها، وكيف دارى اللؤلؤة في حوصلته كلّ هذه الشهور، كيف كان الملك يعرف ذلك كلّه، حتى وهي في القفص تحت سلالم قصره، وأمر لها بحجّة وجملين، مع كيسين من التمر على طريق زبيدة، بشرط أن تقرأ لروح والده الفاتحة هناك، وحينما غلبت الحيرة الحاجّة لواطف من كلّ هذا النعيم والعطايا التي ما جاءتها أبداً في حلم، قالت له: أصحيحٌ أيّها الملك الجليل، أن كتكوتي الصغير الذي صار ديكاً وكبر كانت في حوصلته كلّ هذه الأقدار التي ستجعلني حاجّة على طريق الملكة زبيدة، وابني الكبير سيصير جندياً والصغير سيصير له في البحر سفينة. وهل بالفعل كان في حوصلة الكتكوت لؤلؤة، وأنا أعرف أنّ كتاكيتي طوال عمرها في القفص، ولا عمرها انطلقت إلى البحر، ولا عرفت أبداً شبكة صيّاد، علاوة على أنّ بلادنا ليس بها بحار قريبة منا، علاوة على تلك الصرّة التي فيها كلّ هذه الدنانير، ولا أستطيع حملها، فما بال جلالتك بحمايتها؟ ضحك الملك ضحكة طويلة، وقال لها: «كلّ هذه الأشياء التي ترينها هي البركة، حتى هذا القصر، هو البركة، حتى كلّ المجوهرات التي في يدي هي البركة، ولا حياة بلا بركة، ولا كتكوت بلا بركة، ولا حرب بلا بركة، البركة كلّ شيء، وليت الناس المسعورة تعلم. بكت بالطبع الحاجّة لواطف بكاءً حارّاً، فحاول الملك أن يقبل لها الرأس، لكنّ الحاجّة لواطف خافت واستحت من تواضع الملك، فمالت هي على القدمين كي تقبلهما، فأبعدها عن ذلك بلطف، ثم أمر برزقة ملكية بالخيول والأفيال، وأن تحمل الحاجّة لواطف وقفصها وديوكها، إلى منزلها بعدما أمر لها بأثواب من القزّ والحرير، قال لها ضاحكاً أمام الجماهير: «لا تنسي الفاتحة في الحجّ، يا حاجّة لواطف، إن شاء الله».

أسئلة تونس مُرّة... وإجاباتها أيضاً

معدوح الشيخ

لم ننجح وسيفشلون.. تكاد هذه الكلمات الثلاث تصبح تلخيصاً أمينًا لواقع المواجهات الممتدة بين ثورات الربيع العربي والثورات المضادة. والسائرون تحت راية الثورة في كل الساحات العربية، بلا استثناء، لا يمكنهم التنكر لحقيقة أنهم لم ينجحوا، والفرق الرئيس بين «مشجّع الكرة» و«لاعب الكرة» أن الأول يستطيع أن يصف لك، وهو متكئ على أريكة، كيف أحرز هدف في شباك الخصم، أما الثاني فيستطيع أن يفعل ذلك بنفسه «تحت ضغط الخصم». وأحسب أن من الإنصاف الإقرار بأن ثورات الربيع العربي غلب عليها «حماس المشجّعين» وغابت عنها، إلى حد كبير، «كفاءة المحترفين». وكل المعطيات المعقدة للثورات داخليًا وخارجيًا كانت جزءًا من المشهد الثوري في ثورات العصر الحديث كلها تقريبًا، وإن اختلفت التفاصيل. والاكتفاء بالإلحاح عليها، تفسيرا وحيدا، وعلاجا نهائيا في الوقت نفسه، أوجد حالة من الحماسة المبالغ فيها إزاء كل نقد وكل تقويم وكل تقييم. ومع الإخفاق في الوصول إلى الأهداف، انطلاقا من المعطيات المتاحة «أيًا كانت نواقصها» أصبح مشهد الربيع العربي أقرب إلى مشهد فريق كرة قدم لا يستطيع اللعب «تحت ضغط الخصم»!.

واعتماد حسابات الربح والخسارة على ثنائية إسلاميين/ علمانيين هي جرعة أخرى من قاورة المرارة التونسية التي سبقتها قوارير أخرى، في مصر وليبيا وسورية واليمن والسودان. فالتقييم الصريح لقدرات أغلبية النخب السياسية العربية، بعد اختبارات متتالية، يبعث على الأسى، فيما يتصل بالأفكار والاستراتيجيات والتكتيكات والخطابات. والمثقفون القادرون على المساهمة في إنقاذ السفينة من الغرق، بالإضافة إلى قلة عددهم، كانوا، في معظم الحالات، مبعدين عن مواقع التأثير قبل «الربيع العربي» وبعده. ولأسف الشديد، لم تفلح أيٌّ من التجارب سالفة الذكر في وضع هذه النخبة في موضعها الصحيح. وفي الحالة التونسية، تشابهت على «تحالف الكرامة» (الحاكم)! الفروق الدقيقة بين التقاليد والقيم والمصالح العليا. وفي الوقت القاتل، عجزنا عن التمييز بين الاستحقاقات المتعدّدة للمرحلة التي تمر بها البلاد، فـ «الاستحقاق الدستوري» لا يمكنه سدّ فجوة القصور الكبير في «الاستحقاق السياسي»، وكلاهما لم يشكّلا رصيدًا لـ «الاستحقاق الوطني العام»، وكان الإنهاك المخطط للحكومة استزلافًا مُخطّطًا للشرعيتين: الثورة والدستورية. والإجابة التي اعتمدها الرئيس التونسي، قيس سعيد، كانت أكثر بؤسًا ومرارةً من السؤال، فالشرعية الدستورية، في القيم والإجراءات معًا، تبقى ثروة وطنية للتونسيين جميعًا، وعليه، فلا يحق له تبديدها، ومؤسسات الدولة التي تمثل المشترك العام المادي والمعنوي التونسي (وبخاصة في المشهد التونسي الراهن: الجيران، الجيش، والنهاية العامة) كان على الرئيس توقيرها، وتعزيز ما تمثله من رمزية تعلو على كل الاستقطابات السياسية والأيديولوجية. وما حدث أنه قزّر أن يجعلها أول ما يأكله الحريق!!

والإصرار، من الجانبين، على الاستخدام الخاطئ للوسائل يضع تونس كلها أمام اختبار عسير، فالبرلمان المنتخب، أيًا كانت توجهات أغلبيته، يظل الرمز الأكثر استحقاقًا للاحترام لإرادة الشعب التونسي، والحكومة التي استمدّت مشروعيتها منه لا يملك أحد إطاحتها بخطاب شعبوي فيه من الجزافية أكثر بكثير مما فيه من الموضوعية. يضاف إلى ما سبقَ إن الاستدعاء المكشوف لخطر العنف، اختلاقًا أو تضخيمًا، يحمل في طياته مخاطر كثيرة. أحد أكبر هذه المخاطر أن يكون هناك من يلتقط الخيط داخل الأجهزة الأمنية، فيبدأ في عمل منظم يسفر، في النهاية، عن إعادة بعث الدولة البوليسية في تونس وتضخيمها، ولا شيء يخدم مثل هذه المساعي أكثر من الاستخدام المجاني لخطر العنف المسلح. الاعتراف بأن نخب الربيع العربي تتحمّل جانبًا من المسؤولية عن الإجهاض المتتابع لثوراته، إجابة مرّة عن سؤال لا يقل مرارة، والاعتراف ضرورة للفهم والعلاج، والتغيير في كل الثورات في التاريخ لا يتم بشكل «معملي»، فهناك دائمًا متضرّرون من الثورة، أو متامرون عليها في الداخل أو الخارج، أو في الداخل والخارج معًا. ولا أحسب أن ثورة يمكن أن تنتصر ومن يمسكون دفتها يأملون أن يفوزوا بمباراةٍ يشاهدونها من مقاعد المتفرّجين.

(كاتب مصري)

المعركة مع الشيخوخة غير متكافئة

دلال البزري

مع الشيخوخة، يتكوّم جسمك على بعضه، يتعب، يمرض، يفقد إرادته. ثقيلٌ وحاضرٌ كل لحظة، هذا الجسم يستبدّ بك، ويندرك بأن عليك تغيير عاداتك القديمة في الطعام والشراب والسهر والجلوس والانحناء. كلهم مشوا طوال سنوات على هذه العادات، عليك أن تغيّرها الآن، أن تتمرّن على تغييرها. بنظام جديد، وروتينٍ يومي، لو خالفته، ليتك تموت ميتة هَنِية، إنما تتعذب، تتألم، ترقد في الفراش، والطبيب والمستشفى والعقاقير... كل هؤلاء يهجمون عليك بما تيسّر من ضراوة، لتثبيطك. إياك واللّحمة! أو الخبز، أو البطاطا المقلية.. أو أيّ من تلك الملذات التي باتت بالأمس عادية.

أيضاً، بهذا التكوّم، تخسر حُسنَك ونداوتك وجاذبيتك. تخط التجاعيد وتتعمّق شيئاً فشيئاً. يتهدّل وجهك، يتبهدّل. وأحياناً تصير شخصاً آخر، لا تعود تشبه نفسك. وجهك يضيع وجسمك معه، الذي لم يَعُد جسداً، إنما كيانٌ بيولوجياً يفلت منك، لا يصغي إليك، يتصرّف على هواه. يسقط، يتهاوى، جاذبيةً ما في الأرض التي تدعس عليها تشدّه بقوةٍ خفية إلى تحت. جاذبية خبيثة، تنزل وجهك، وبطنك وصدرك وكل ما يمت بصلة لعضلاتك. وحده «كرْشك» يرتفع، يسبقك إلى مواعيدك. ولو كنتَ رجلاً، يراضيك صحبك بوصفه بـ«كرش الوجاهة». فالوجاهة لا تُعنى، هكذا بضربة الأيام. ليست شفاهاً ولا عضلات.

في العقل، في الوجدان، الوقت ليس لصالحك. لم يعد أحدٌ يقول لك «أمامك السنوات...»، أو «أنتَ شخص واعِد» للتشجيع أحياناً، أو لإخراجك من إحباط ما. الآن، صرتَ على المَقْلب الآخر. كم بقي لك من السنوات؟ عشرٌ؟ خمس عشرة، على الأكثر؟ ماذا عساك أن تستبدل، أن تصحّح، مساراً أو مهنة أو فكرة أو صداقة أو مجرّد هواية وترفيه؟ وجميعها تحتاج إلى وقت، لتتعلّمها أو تعتاد عليها.

والآن، تغيرت طبيعة الوقت. تبخّر المستقبل، طار بغفْضة عين. وحلّ الماضي مكانه، سكنَ في حديقتك الداخلية، أحداثٌ سعيدة وبائسة، تفاصيل تهجم عليك، ترمّمُ وقتك، تملأ الفراغ الذي استوطن في مستقبلك. حسناً، يقول عقلك نصف الباطني، كاره الفراغ، إن لم يكن ثمّة مستقبل، فليكُنِ الماضي. ولكن بما أنك أصبحتَ شيخاً، صرتَ بالتعريف مهدّداً بالخَرَف، بالنسيان.. تكون تمارين التذكر فيتعكّر مزاجك، وتسوّدُ الدنيا بوجهك، وتكون العَتْمة. ويصف لك الطبيب تلك الحبوب الخاصة باكتئاب الكِبَر.

الذلّة، آه الذلّة. أن تصطاد اللذة مثل مراهق لم يعرفها. شهوتك عظيمة. ولكنك لا ترغب. تودّ أن ترغب، أو أن ترغب الرغبة. أي رغبة .. أو تلوذ إلى البشر، إلى الناس. ولكن هؤلاء لا يرحّبون بك. وإذا كانوا من الشيوخ، أو لم يكونوا، فأنتَ تثير لديهم الضجر والنفور. كلاهما يتجنّبك. الشيوخ لأنك المرآة المحطمة التي يودّون تناسيها، والشباب لأنهم يخشَوْن أن ينتهوا كما ينتهي وجهك وجسمك.

لصالحك. لم يعد أحدٌ يقول لك «أمامك السنوات...»، أو «أنتَ شخص واعِد» للتشجيع أحياناً، أو لإخراجك من إحباط ما. الآن، صرتَ على المَقْلب الآخر. كم بقي لك من السنوات؟ عشرٌ؟ خمس عشرة، على الأكثر؟ ماذا عساك أن تستبدل، أن تصحّح، مساراً أو مهنة أو فكرة أو صداقة أو مجرّد هواية وترفيه؟ وجميعها تحتاج إلى وقت، لتتعلّمها أو تعتاد عليها.

والآن، تغيرت طبيعة الوقت. تبخّر المستقبل، طار بغفْضة عين. وحلّ الماضي مكانه، سكنَ في حديقتك الداخلية، أحداثٌ سعيدة وبائسة، تفاصيل تهجم عليك، ترمّمُ وقتك، تملأ الفراغ الذي استوطن في مستقبلك. حسناً، يقول عقلك نصف الباطني، كاره الفراغ، إن لم يكن ثمّة مستقبل، فليكُنِ الماضي. ولكن بما أنك أصبحتَ شيخاً، صرتَ بالتعريف مهدّداً بالخَرَف، بالنسيان.. تكون تمارين التذكر فيتعكّر مزاجك، وتسوّدُ الدنيا بوجهك، وتكون العَتْمة. ويصف لك الطبيب تلك الحبوب الخاصة باكتئاب الكِبَر.

الذلّة، آه الذلّة. أن تصطاد اللذة مثل مراهق لم يعرفها. شهوتك عظيمة. ولكنك لا ترغب. تودّ أن ترغب، أو أن ترغب الرغبة. أي رغبة .. أو تلوذ إلى البشر، إلى الناس. ولكن هؤلاء لا يرحّبون بك. وإذا كانوا من الشيوخ، أو لم يكونوا، فأنتَ تثير لديهم الضجر والنفور. كلاهما يتجنّبك. الشيوخ لأنك المرآة المحطمة التي يودّون تناسيها، والشباب لأنهم يخشَوْن أن يختموا كما ينتهي وجهك وجسمك.

إذا أردت أن لا تتبهدل إلا قليلاً في شيخوختك، كل هذه الجهود العقلية، المعنوية، الجمالية، الحسية .. إلخ. أنتَ، هذا هو الحكم والنظر.. تسمح لك بالتسمّر في مناهة أن لا تكون أنتَ، أو تحاول أن تكون غيرك. وحتى لو عاندتَ وأنكرت أثر الشيخوخة، واصررتَ أن تكون فلاناً آخر، فشيءٌ غير مفهوم، قبل الشيخوخة بـ«جمال روحهم». و«جمال الروح» هذه، عندما تطبّق على النساء، يكون القصد الهزلي منها انتفاء جمال صباهن.

أما الفقراء، فلأنهم ولدوا شيوخاً، يخوضون معارك غير متكافئة منذ دهر. والغنى من بين الشيوخ، أكان نجماً لامعاً او سياسياً أو مليونيراً... أو مليارديراً، فعندما يشيخ، يستطيع التعويض عن قلّة جاذبيته الحميمة بسطوع أضوائه وسحر سلطته المشهودة. ثلاثي المال، الشهرة، و«الفن التلفزيوني»، كلها اجتمعت عند رمزٍ من رموز التاريخ المعاصر، دونالد ترامب، الرئيس الأميركي السابق، الذي تمكّن من التي تصغره بأربع وعشرين سنة، بمقايضة لا ريب فيها بين شبابها وبين كل ما يتحلّى به زوجها العجوز.

> للشيخوخة حَسَنات، أشهرها، أنك عمّرتَ، أي أنك لم تمُت. أي أن الخيار المطروح عليك هو الموت أو الشيخوخة

مع أن للشيخوخة حَسَنات. أشهرها، أنك عمّرتَ، أي أنك لم تمُت، أي أن الخيار الوحيد المطروح عليك هو الموت أو الشيخوخة. يعزّيك بعضهم بأن تأخر موتك «شطارة» أو «مكابدة»، فيما هي مصادفة وحدها، لا تنفع معها العادات الصحية والتمارين الرياضية. لا جميل لك بالبقاء على قيد الحياة.

من هذه الحسنات أيضاً، أنك لم تَعُد في وارد أن تكون إلا أنتَ. لا الهُنَة، لا الوقت، ولا بعض الحكمة والنظر.. تسمح لك بالتسمّر في مناهة أن لا تكون أنتَ، أو تحاول أن تكون غيرك. وحتى لو عاندتَ وأنكرت أثر الشيخوخة، واصررتَ أن تكون فلاناً آخر، فشيءٌ غير مفهوم، ربما الجينات، بعيدك إلى أمك أو أبيك أو خالتك أو عمّتك. تأخذ من ملامحهم ما يمحي أثر الشخصية الأخرى التي حاولتَ أن تكونها طوال عمرك.

الحسنة الأخرى، أنك، بالشيخوخة، ختمتَ معرفة كل الأعمار. أي أنك خزّنتَ من الحكايات التي قد تضيع هباء، ويحسُن بك أن ترويها، لمن تشاء. ليس للأذان التي ملّت مواعظك وحكمك البائتة، إنما لآذان محبة للحكايات، هي ذخيرتك. حتى وهي متقطعة، منثورة هنا وهناك في زوايا ذاكرتك. وتبقى هكذا على صلةٍ مع غير مجايليك من شباب وراشدين ومراهقين وأطفال. تعلّمهم الحكايات، ومنهم تستلّمها تذوق طعم الخفّة والبهجة.

لا تتصابى ولا تستشيخ. ولا تقترب أبداً من تلك «البيوت» أو الملاجئ التي اخترعتها المجتمعات الحديثة الغنية، من أجل إيواء الشيوخ. فهي مؤسساتٌ بيروقراطية، جافة، تعامل الشيوخ كما لو كانوا وزْراً، كما لو كانوا أطفالاً بلا مستقبل. ومهما بلغت درجة رُقي هذه البيوت. حيث توصف بالمكان الذي «يشجّع النزلاء بعضهم بعضا على تثبيط عزائمهم»..... الحداثة طوّلت العمر. وبغخر. لكنها عاملت طويلي العمر بصفتهم بنوداً في البرامج والوعود الانتخابية، تناقش ميزانيتهم في البرلمان. وهي «بيوت» فرضها انحلال الأواصر العائلية، وتبعثرها.

لا تقترب من هذه المؤسسات عندما تشيخ. ابقَ بين عائلتك وأحبائك واصدقائك، الراشدين منهم والرضّع. هؤلاء اغنى لنهايتك وأبقى وارحم. حتى لو شابهم تقصير، أو ضجر.. الربح الأخير من العمر يحتاج إلى حب. إلى حب فقط.

(كاتبة لبنانية)

الحلم العربي وأغاني المهرجانات

احمد ماهر

أغنية شعبية جديدة، من نوع أغاني المهرجانات الذي أصبح سريع الانتشار في مصر، يتم تشغيلها بكثافة في وسائل المواصلات الشعبية، مثل التوكتوك والميكروباصات الصغيرة، وأغاني المهرجانات الحديثة تتحدث، عادة، عن صراعات الشوارع، أو أنواع المخدرات، أو غدر الأصحاب، أو كيفية استخدام الأسلحة، أو بعض قصائد الغزل الصريح، ولكن اللحن المستخدم في الأغنية المذكورة كان هو لحن أغنية الحلم العربي التي كانت منتشرة بشكل كبير في مصر، والوطن العربي في بداية الألفية. كانت تلك الأغنية الأبرز والأشهر في مصر أيام انتفاضة فلسطين الثانية، وهي من تأليف السيناريست مدحت العدل، ومن تلحين الموسيقار حلمي بكر، والموسيقار صلاح الشرنوبي، وتوزيع الفنان والموزع حميد الشاعري. وفي عام 2002 كان يمكن سماعها تخرج من كل البيوت المصرية في الشوارع، ومن السيارات والراديو والتلفزيون، وفي مسارح المدارس والجامعات. كانت تلك الأغنية في ذلك التوقيت ذات تأثير كبير على قطاعات ضخمة من الشعب العربي، وكانت القنوات الفضائية تعيد إذاعتها مرة تلو الأخرى. ومع أنها لم تكن أغنية شبابية، إلا أن الشباب والمراهقين والأطفال كانوا يسمعونها في وسائل المواصلات عن طريق اختراع «الووكمان».

كان لتلك الأغنية شأن كبير في بداية الألفية، فقد جمعت فنانين عديدين من مختلف الدول العربية، ينشدون أغنية ذات الحان مؤثرة عن الحلم العربي القديم الذي سمعنا عنه. أذيعت الأغنية في أثناء فترة الانتفاضة الفلسطينية الثانية، وما كان يصاحبها من مشاعر مختلطة ومركّبة، بين الحنين لفكرة القومية والغضب من الاعتداءات الصهيونية المتكررة، والرثاء للذات والإحساس بالمهانة من الضعف العربي الدائم والعجز عن وقف العدوان أو عدم القدرة على الرد أو اتخاذ موقف عربي موحد. وقتها قارنها بعضهم بأغنية «الوطن الأكبر» التي لحّنها محمد عبدالوهاب عام 1960، وشارك فيها عبد الحليم حافظ وصباح وفايدة كامل ووردة ونجاة وشادية، وأثارت أيضا وقتها مشاعر الملايين في العالم العربي، خصوصا مع المد القومي وأحلام الوحدة العربية التي كانت مسيطرة وقتها، فتحدّثت الأغنية عن مفاهيم الوحدة العربية التي كان يؤمن بها من يعيشون في القطر العربي. وفي الوقت نفسه، لم تتحيّز الأغنية وقتها لشخص معين أو اتجاه سياسي معين، وهو ما أعطاها شعبية كبيرة، وإنْ كانت الأغنية منسوبة للقترة الناصرية وتوجهات جمال عبد الناصر ودعمه فكرة الوحدة، ولم تتم الإشارة إلى أي زعيم عربي صراحة في النسيج المجتمعي الجامع في سورية، وكان الاستحقاق الرئاسي فرصة مناسبة كي يبادر الأسد للتقريب بين السوريين، ولم تكن زيادة الشرخ بينهم عبر المواقف الأخيرة مناسبة للوقت الراهن، ولا لمستقبل سورية.

(كاتب سوري)

> كان الجميع في فترة الانتفاضة الفلسطينية الثانية يراقب في عجز، يحنّ للحلم العربي بالوحدة، ويسمع أوبريت الحلم العربي في حزن

من يجرؤ على انتقاد الأغنية وكلماتها، وقتها بالطبع. ولكن هناك من انتقد المبالغة الشديدة في كلمات الأغنية، مثل عبارة «انتصاراته مالية حياته»، فلم تكن فترة المد القومي في الستينيات مليئة بالانتصارات الكبرى كما صوّرتها الأغنية، وانتهت بهزيمة مخجلة وزلزلة عام 1967، ولكن ربما كان المقصود بالانتصارات هو ما حدث في تحرير الجزائر، أو الانتصار السياسي بعد أزمة السويس 1956، أو بعد الوحدة قصيرة الأمد بين مصر وسورية. وبعد سنوات، اعتبر بعضهم أن تلك المبالغة في ذكر الانتصارات العربية الكبرى أمر يدعو إلى السخرية والأسى. كان الجميع في فترة الانتفاضة الثانية يراقب في عجز، يحنّ للحلم العربي بالوحدة، ويسمع أوبريت الحلم العربي في حزن. إنه الحلم بوجود قوة اقتصادية عربية ودفاع عربية مشتركة لردع الأعداء، وحدة تسمح بانتقال الشعب العربي بحرية بين الأقطار العربية، كما كان الأمر قبل تأسيس الدول والممالك العربية، الحلم العربي بالردّ على تلك الإهانات الإسرائيلية الصاع صاعين، أو على الأقل القدرة على وقف العدوان والظلم الواقع على الفلسطينيين.

وبالطبع، كان من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن يتحقق حلم الوحدة العربية في فترة الألفية، فهو لم يتحقق في وقت الذروة لطالب الوحدة في الخمسينيات والستينيات، اصطدم وقتها بأطماع الزعماء العرب وجنونهم وخلافاتهم، مثل خلافات الناصريين، والبعثيين، وخلافات القوميين العرب، في تفاصيل كثيرة، حتى المحاولة الوحيدة للوحدة بين مصر وسورية لم تكتمل بسبب حماقة من قاموا بها وأطماعهم، بالإضافة إلى عدم حسم تفاصيل كثيرة بشأن النظام الاقتصادي والسياسي قبل القرارات الفوقية بالوحدة.

تحطّمت أول تجربة للوحدة برعونة عبد الناصر ومراهقة عبد الحكيم عامر، وانهارت التجربة سريعا بانقلاب تلو الآخر داخل سورية، وتحطم الحلم تماما بعد الهزيمة العسكرية المخجلة للعرب في يونيو/ حزيران 1967، ثم توالت الضربات لمشروع القومية العربية مع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية والانقسام العربي الشديد بعد ذلك، ومقاطعة معظم الدول العربية مصر، ثم كانت الضربة الكبرى والقاضية مع مغامرة صدّام حسين، الذي بعد أحد رموز قوميين عرب كثيرين وأصنامهم، وغزوه دولة الكويت طمعا في الثروات ورغبة في التوسع وإيجاد منفذ على الخليج العربي.

وظل الحلم العربي يتلاشى ويتلاشى بعد كل الضربات والكوارث حتى أصبح الحديث عن الوحدة العربية مثاراً للسخرية، أو التعجب، خصوصا بعد هرولة دول في الخليج والجنوب والمغرب إلى التطبيع مع العدو الإسرائيلي بكل حبٍّ وحفاوة، فإسرائيل التي كانت العدو المركزي للعرب منذ نشأتها وخلال فترة المد القومي العروبي، ولعقود كانت القضية الفلسطينية وكيفية تحرير فلسطين وردع العدو الصهيوني هي القضايا المركزية العربية، ولكن بعد مرور 60 عاماً أصبحت إسرائيل الحليف الاستراتيجي لدول عربية عديدة، أصبحت مفتاح الانفتاح على العالم الخارجي لدولة مثل السودان، وهي الصديق الوفي الذي سيحمي دولا في الخليج العربي من الخطر الفارسي. حلم القومية كان حلم العرب، حكاما وشعوبا، أو هكذا يُفترض، لكن التنفيذ دوما بيد الحكام وليس الشعوب، وكانت القومية أو حلم الوحدة العنصر الرئيسي في حديث الزعماء إلى شعوبهم. ربما كان هذا هو سبب الإخفاق، فقد تحوّلت إلى شعارات إقصائية يتم بها دغدغة مشاعر الجماهير، ويتم بها ترويج نظرية المؤامرة وتبرير الفشل والفساد والاستبداد، مثل القاشية والنازية، والفاشق العربي، منذ تأسيس الدول والممالك العربية، قائم على الفردية ورغبات الحكام العرب وصراعاتهم ومغامراتهم ونزواتهم.

وعندما انتفضت الشعوب العربية عام 2011، كان هناك أمل حقيقي في تحقيق ذلك الحلم، فالشعوب تأثرت ببعضها بعضا، وكانت مطالب الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية واحدة، وكان الشباب العربي المنفتح على بعضه عن طريق الإنترنت يحلم بإزالة الحدود المادية والمعنوية التي صنعتها السياسة والأنظمة العربية، ولكن المطالب الشعبية العربية قمعتها الأنظمة والحكومات التي تستخدم شعارات قومية وعروبية، بعدما شيطنت الثورات والمطالب الشبابية، والصقوا بها صفة المؤامرة. وتضاءل الحلم العربي حتى صار مجرّد أغنية مهرجانات شعبية تخرج من «التوكتوك». فالوحدة ليست مجرّد شعارات وأغان، وقد تكون وحدة الثقافة ووحدة الماضي من العناصر المهمة لتحقيق وحدة وتكامل، ولكنها ليست العناصر الكافية لتحقيق وحدة سياسية اقتصادية. ويعتبر الاتحاد الأوروبي نموذجاً ناجحاً حول كيف كانت هناك مفاوضات استمرت سنوات طويلة، وتنازلات من جميع الأطراف، ورغبة حقيقية شعبية قائمة على ديمقراطية، وليست قرارات فوقية، وكيف اتخذ الأمر عقودا من الخطوات والتقارب الاقتصادي حتى كانت الوحدة الأوروبية، على الرغم من اختلاف اللغة والأصول والأعراق، وعلى الرغم من كل الحروب والدم الذي كان بينهم قبل ذلك.

(كاتب وناشط مصري)

خطاب القَسَم الذي قَسّمَ السوريين

آلان حسن

لم يكُن مُنتظَراً من الرئيس السوري بشار الأسد، وهو يبدأ ولايته الرابعة، أنْ يُخاطِب السوريين بمنطق المُنتصر الذي يُملي إرادته على أنصاره وخصومه على حدٍّ سواء، وهو الذي يحكم الآن بلداً شعبه مُقسّمٌ بين اللجوء والنزوح والعيش في ظروف بالغة السوء، إلى درجةٍ أنّ ما يزيد على 87% من السوريين باتوا اليوم تحت خط الفقر، وفق إحصائيات الأمم المتحدة. باتت الجغرافيا السورية اليوم مُقسّمة فعلياً بين أربع قوى: الحكومة السورية في وسط البلاد وجنوبها، وإنْ بنسب سيطرة فعلية مختلفة، وكذلك في مناطق محدودة شمال شرقي سورية، هيئة تحرير الشام (جبهة النُصرة سابقاً)، في محافظة إدلب، وفصائل المعارضة السورية الموالية لتركيا في كُلّ من عفرين والباب وجرابلس وإعزاز وتل أبيض/ عين العرب، وأخيراً قوات سورية الديمقراطية في كُلّ من كوباني (عين العرب)، والجزء الشرقي من منطقة شرق الفرات، بالإضافة إلى مدينة منبج، غرب نهر الفرات.

ما لم يقله الأسد في خطاب القَسَم، أكّدت عليه المستشارة الخاصة في رئاسة الجمهورية لونا الشبل، في لقائها النادر مع الإعلام السوري، ما زاد من حِدّة الانتقادات الشعبية للخطاب، حيث شكّلت لغة التخوين سمة بارزة في اللقاء، كما في الخطاب. قالت الشبل إنّ الأسد لم يُعِد السوريين شيئاً، وهو بالتالي لم يحلّ من أيّ تعهّد يمكن أن يُلتزَم به رئيس جمهورية مُنتخَب تجاه شعبه، وشدّدت على أنّ السوريين صمدوا خلال سنوات الحرب، لأن عليهم الصمود وخسب، ولم يكن طلباً من القيادة السورية، وبالتالي لا خيار أمامهم اليوم سوى الاستمرار في الصمود، من دون أن يمنّوا أنفسهم بأيّ انفراجة قادمة، تُنهي، أو على الأقل تُخفّف، من هُول ما يعيشونه.

كان خطاب الأسد أشبه بنَسْف أعمال اللجنة الدستورية التي تنعقد في جنيف برعاية الأمم المتحدة، والتي أوكلَت بمهمة وضع دستور جديد لسورية، يكون بديلاً لدستور عام 2012 الذي وُضِع إبّان بداية الحرب السورية، وشاركت في صياغته حينها أحزاب من المعارضة الداخلية المرخّصة من الحكومة، وعُرِض حينها على الاستفتاء الشعبي العام.

وفي استكمال للتصور السوري للجنة الدستورية، قالت الشبل إنّ مشاركة وفد الحكومة السورية (أو الوفد الوطنيّ السوريّ وفق التسمية المعتمدة من الإعلام الرسمي) تندرج في إطار التكتيك السياسيّ وحَسْب، وليس من تحويل على نجاح عملها، فالقيادة السورية في اللجنة الدستورية، وفق الشبل، إنّما تفاوض مع تركيا، وليس مع أي جهة سورية معارضة، على الرغم من أن وضع دستور جديد للبلاد يمثل السلة الثانية من سلال دي ميستورا (المبعوث الأممي السابق) الأربع، إنشاء حُكْم غير طائفيّ يضمّ الجميع، وإجراء انتخابات حُرّة ونزيهة بعد وضع الدستور، التركيز الكبير على زيارة وزير الخارجية الصيني إلى دمشق، بالتزامن مع خطاب القسم، وتركيز الإعلام الرسمي السوري على الدور الصيني في سورية، وعلى المبادرة الصينية لحلّ الأزمة السورية، ربما كان جزءاً من الآلة الدبلوماسية الرسمية السورية لمواجهة أيّ ضغوط روسية قادمة للإلزامها بتسوية سياسية غير مرضية.

نقطة أخرى أشار إليها الأسد في خطابه، وشنّ فيها هجوماً لاذعاً على قوات الخارجية ببيان شديد اللهجة ضد استقبال الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون وفدا من الإدارة الذاتية لشمال وشرق سورية ومن مجلس سورية الديمقراطية، حيث اعتبرت الخارجية السورية أنّ «الإدارة الذاتية» مشروع انفصاليّ، ومُلحَق بمشروع أميركيّ في المنطقة، بهدف إلى إضعاف الدولة السورية. ولا ينسجم الموقف الرسمي هذا مع دعوة وزير الخارجية الروسي السابق) الأربع، إنشاء حُكْم غير طائفيّ يضمّ الجميع، وإجراء انتخابات حُرّة ونزيهة بعد وضع الدستور، التركيز الكبير على زيارة وزير الخارجية الصيني إلى دمشق، بالتزامن مع خطاب القسم، وتركيز الإعلام الرسمي السوري على الدور الصيني في سورية، وعلى المبادرة الصينية لحلّ الأزمة السورية، ربما كان جزءاً من الآلة الدبلوماسية الرسمية السورية لمواجهة أيّ ضغوط روسية قادمة للإلزامها بتسوية سياسية غير مرضية.

> كان خطاب الأسد أشبه بنَسْف لأعمال اللجنة الدستورية التي تنعقد في جنيف

نقطة أخرى أشار إليها الأسد في خطابه، وشنّ فيها هجوماً لاذعاً على قوات الخارجية ببيان شديد اللهجة ضد استقبال الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون وفدا من الإدارة الذاتية لشمال وشرق سورية ومن مجلس سورية الديمقراطية، حيث اعتبرت الخارجية السورية أنّ «الإدارة الذاتية» مشروع انفصاليّ، ومُلحَق بمشروع أميركيّ في المنطقة، بهدف إلى إضعاف الدولة السورية. ولا ينسجم الموقف الرسمي هذا مع دعوة وزير الخارجية الروسي السابق) الأربع، إنشاء حُكْم غير طائفيّ يضمّ الجميع، وإجراء انتخابات حُرّة ونزيهة بعد وضع الدستور، التركيز الكبير على زيارة وزير الخارجية الصيني إلى دمشق، بالتزامن مع خطاب القسم، وتركيز الإعلام الرسمي السوري على الدور الصيني في سورية، وعلى المبادرة الصينية لحلّ الأزمة السورية، ربما كان جزءاً من الآلة الدبلوماسية الرسمية السورية لمواجهة أيّ ضغوط روسية قادمة للإلزامها بتسوية سياسية غير مرضية.

> كان خطاب الأسد أشبه بنَسْف لأعمال اللجنة ال

نخبة ما بعد الديكتاتور... العراق مثالاً

عمار السواد

حين ألقى طه حسين عمامتَه هاجراً أزهريته، وَضعَ علامةَ زمن جديد. كانت ملامح ذلك الزمن باديةً قبلَ جيله بقليل، لكنّ عميد الأدب العربي استطاع أنْ يكون حجرَ الزاوية في المدوّنة العربية... بعد زمن الجدل المصري ذلك، في النصف الأول مِن القرن العشرين، جاء الربع الأخير منه مرحلةً مهمةً في المدوّنة نفسها. لقد ظهرت في تلك الخمسة وعشرين عاماً ملامحُ عملية مراجعة جادة للفكر والتراث والمعرفة. أسماء محمد عابد الجابري، محمد أركون، عبد الله العروي، صادق جلال العظم، نصر حامد أبو زيد، جورج طرابيشي.. وأسماء أخرى هي أمثلةٌ قامت بقراءات ومراجعات جادّة للتاريخ الساكن في الحاضر. لكن جلّ الفكر العربي، خلال آخر خمسة وعشرين عاماً، لم يُقارب السياسةَ المعاصرة مقاربةً واضحة. ظل الجلُّ مسكوناً في التراث وساكناً في نقده، ربما كتّاب مثل إدوارد سعيد وبرهان غليون كانوا أقليةً مشتغلة في شؤون الحاضر. وليس غريباً أن آخر مفكرين مؤثرين اشتغلوا بالتأسيس السياسي العقدي للحظة الراهنة كانوا عقائديين، مثل ميشيل عفلق وسيد قطب ومحمد باقر الصدر. هؤلاء عاشوا بين زمني الجدل المصري ونقد التراث الإسلامي أو العربي. جلّهم برز في أربعينيات القرن الماضي وخمسينياته، وانتهى تقريباً في سبعينياته. هي فترة صعود الجمهوريات القومية والتأسيس لها وأيضاً صعود معارضي القومية والتنظير لإسقاط آيديولوجياتها.

وفي الأقلية المقابلة للعقائديين المؤثرين، يمكن ذكرُ علي الوردي مثالاً مهماً على مَن استمر ثم توقف فجأة. الوردي ألّف آخرَ جزء من كتابه اللمحات عام 1978، توقف عن التأليف بعد ذلك، واكتفى بمقالاتٍ قليلةٍ ومتابعة طلابه في جامعة بغداد. هي علامةٌ على أن دكتاتوريات الأنظمة أو الطوائف أطبقت على بلدان، مثل مصر والعراق وسورية ولبنان. غابَ النظرُ إلى الزمن المُعاش. وبالتزامن، ظل الجميع مسكوناً في التراث، أو لجأ كثيرٌ إلى الأدب بديلاً، لا أثمان تدفع للخوض فيه أو به.

العراق هنا يمثل أكثر البلدان الناطقة بالعربية أنموذجاً. والسبب أنه عاش مرحلةً اختصرت الحرب المستمرة والعسكرة والاستبداد والشمولية، ربما شابه مصرَ في ستينيات القرن الماضي وخمسينياته. مع فرق مهم أن جمال عبد الناصر المستبد لم يكن صدّاماً، ومصر المفتوحة على العالم جغرافياً وتاريخياً ليست العراق. فضلاً عن هذا، غادر المصريون المرحلة مسرعين إلى جدلهم المحلي الخاص، على الرغم من استمرار جمهوريتهم العسكرية. العراق مع ثورة تموز 1958 وحتى سقوط نظام صدّام حسين واحتلال بغداد، عاش عُقدتَه متداخلةَ التأثيرات وكثيرةَ التفصيلات..

أمر آخر، أظنه جوهرَ الإشارات إلى الاختلاف بينه وسواه. العراق منذ نهايات العقد السادس مِن القرن العشرين، وتحديداً بعد صعود العسكر، فقد الفكرَ لصالح الشعر، المعرفةَ لصالح الأدب، والعاطفةَ لصالح المنطق. مرحلة المفكرين الدارسين في الغرب بدأت نهاياتُها مع ثورة تموز عام 1958. العراق بعد مرحلة التحوّلات الفكرية والنقدية تلك بات قصائدَ، مع بعض المساعي السردية.

يكتب الشاعر والناقد فوزي كريم عن تلك المرحلة في مقدمة كتابه «تهافت الستينيين»، واصفاً ستينيات القرن الماضي من تلك المرحلة بأنها عهد «الشياطين»، ومقتبساً ذلك من رؤية دستويفسكي إلى شياطين روسيا. قصَد بالشياطين أولئك الأيديولوجيين ممن ورّطوا البلد في محنة غياب العقل. أظنه كان مصيباً في تصنيف الجانب الآيديولوجي، لكنه أغفل فكرة أن تلك الحقبة هيمن عليها واستبد بها الشعرُ على حساب الفكر. لم يُعرف العراق ثقافياً في تلك المرحلة إلا عبر شعرائه. ومنذ التسعينيات، لا يَعرفُ محيطُ العراق عن شعر جاره العراقي الكثيرَ. دخل البلد عزلته. لكن، مع تلك العزلة، بدأ أمرٌ في الظهور.

خلال تسعينيات القرن الماضي، شقّ جيلٌ نخبوي جديد طريقَه، هو جيل الاستنساخ. وسط الحصار الاقتصادي ومَنْع بعض الكتب، ظهرت مجموعة من الشبان، لتحصل على ما هُرّب من كتب مؤلفة أو مترجمة عربياً، وتنسخها. انطلق أولئك الشبان مسوقين ما نسخوا في شارع المتنبي. لم يكونوا تجّار كتب، بل اشتغلوا بالثقافة، إلا أنهم لم يهتموا بنقد الحاضر السياسي. اشتغالهم برز في أفكار المعارف الإنسانية. نسخوا ما لم يتعارض مع سياسة النظام، لكن تعارض جوهرَه أو ما ظن أنه يهدده. فوكو، دريدا، شتراوس، هابرمارس، أركون، أبو زيد، علي حرب، الجابري، بنسعيد العلوي.. وآخرون هم مضمون النسخ. وليس مصادفة أن هذا الجيل لعب دوراً بارزاً ومحورياً في عالم الميديا بعد عام 2003. جُله أو أهم شخوصه عمِلوا في المجال الصحافي وأحياناً في المجال الأكاديمي. وبحكم التقادم، أكثرُ أسماء هذا الجيل مضى في غياهب الزمن، لم يعد في الواجهة. ظهر آخرون. وعلى الرغم من الغياب النسبي، كان جيلُ الاستنساخ وما بعده من شرائح أخرى مشتغلة في الثقافة حاسمين في التأثير في الوقائع السياسية والحراك الاحتجاجي. أظن أن ما يمكن تسميتها النخبة أو النخب، خصوصاً بعد 2010، لقنتْ أحزابَ السلطة دروساً في المعارضة لم يعتد العراق عليها.

ثم حدث تحوّلٌ جذري. مظاهرات عام 2010 تظل علامة فارقة. رُفع شعار «بغداد لن تكون قندهار» في احتجاجات ذلك العام. هو شعار لم تخلقه الحاجة الاقتصادية، ولم تستقطب جماهيرَه الأحزابُ. المشتغلون بالمعرفة والإعلام هم من فعل ذلك. شارع المتنبي، شارع الكتب والمعرفة، لا أروقة السياسيين، كان المطبخَ لـ«بغداد لن تكون قندهار». لذا وخلال أعوام لاحقة، عملت كل الأحزاب على استدراج ذلك الشارع. العنف أيضاً سعى إلى إسكاته. لم يسكت بعد، ولم يُستدرج حتى الآن. بالتأكيد هناك شرائح ومراكزُ قوى إعلامية ومؤسّساتية ساهمت في صناعة لحظة سياسية عام 2010، غير أن المشتغلين بالثقافة هم مَن كانوا في الواجهة، وهم مَن أسّسوا ثقافة الاحتجاج بعد ذلك، ثقافة وصلت ذروتها في احتجاجات أكتوبر 2019. لقد ولدت خلال تلك السنوات معطياتٌ جديدة، أسّستْ لما لم يكن العراق يمتلكه على مدى نصف قرن. لعب المشتَغِل غيرُ الحزبي في الثقافة دوره في التأسيس لوعي المعارضة مقابل الحزبي ومحاولاته توجيه الثقافة له.

كان الدور مهماً. ففي غياب المعارضة الحزبية، إلا من المتنازعين قومياً وطائفياً، كانت النخب غير المتحزبة مديرةً دفّة المواجهة ضد منظومة طائفية ومشبعة بالفساد. في عام 2014، عندما سقطت نينوى ومحافظاتٌ أخرى بيد تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، انقسمت النخب. كان الطائفيون الذين ارتموا في أحضان المليشيا وفتوى الجهاد والمشروع الإيراني، فضلاً عمن ارتموا في حضن «داعش» بعض الوقت، وكان آخرون كُثر واجهوا علانية أو بطريقة ما تشكيلَ المشروع الطائفي بذريعة المشروع الداعشي. نجح خصومُ الطائفية حين وقفت غالبيتهم ضد خلافة البغدادي، لكنهم لم يُشرعنوا عقيدةَ المليشيا. ثم في عام 2015، وتحديداً بعد اندلاع مظاهراتٍ عارمة، حدث أكبرُ انقسام داخل النخب المشتغلة في النشاط المدني والإعلام والفكر. مقتدى الصدر قسّمهم. خوفاً من تصفية المليشيات الموالية لإيران، لجأ كثيرون لزعيم دينسياسي قدّمَ نفسَه بديلاً عن المشروع الطائفي. كان كاذباً بالتأكيد، وكثيرٌ من أولئك الذين ذهبوا إليه باعتباره المخلِّص كانوا واهمين.

وعلى عكس 2015، لم تصنع النخبُ حراكَ تشرين الأول 2019، جيلٌ جديد فعل ذلك. المليشيا لم تفهم ذلك الجيل، على الرغم من أن بعض شرائحه قاتلت ضد «داعش»، وضحّت ودفعت من دمائها ومستقبلها الكثيرَ لمنع تمدّد التنظيم الإرهابي إلى بغداد، بعد أن أسقط ثلث العراق. لكن النخب وقفت موقفاً حاسماً في دعم تلك المظاهرات، وقفتْ خلفها، إلا بعض من امتهنت السلطةُ اسمَه وحولته واعظاً لها، أو جعلته المليشيا مجمّلاً لها. خاض المشتغلون في الثقافة معارك عدة في مواجهة محمومة لحماية شبان تشرين. وباتت أسماءٌ مهمة فيها هدفاً للقتل غيلة. بلغ الأمر ذروته مع اغتيال الباحث هشام الهاشمي.

وسط ذلك كله، سعى رئيس الوزراء، مصطفى الكاظمي، إلى استدراج النخب إليه، مدركاً دورَها. نجح في الحصول على بعض الأسماء، لكن آخرين ظلوا رافضين مشروعَه تحويلَ أصوات الصحافة والثقافة والفكر والنشاط المدني لخدمة سلطةٍ لا خيارات لها سوى التعايش مع منظومة النهب وشبكة المليشيا. هؤلاء الذين ظلوا في مواجهة مشروع سلطةٍ، يُفترض أنها ثمرة المظاهرات، هم دائماً خط النقد الرئيس وسط غياب الحلول.

لكن، هناك خلل مهم يواجهه المشتغلون في الثقافة. عانوا مما لم يعان منه الجيلُ المصري وجيل الربع الأخير من القرن الماضي، وهم ركزوا على ما عانى منه الجيلان. الانشغالُ في يوميات النقد السياسي ومواجهةِ السلطة والجماعات المسلحة والمشاريع الإقليمية المتنوعة أبعدَ كثيراً من الأسماء القادرة على صناعة الفكر عن المساهمة في بناء مرجعياتٍ لا يمكن أنْ تصنعها ردودُ الفعل اليومية. لقد أصبح الجميع تقريباً في مواجهة يومية بدون العمل على تأسيس قواعد معرفية تبلور بدائل. بمعنى آخر، المنجز المعارض في العراق تقوده نخبٌ مشتغلة بالكلمة، من دون أن تؤسّس لمعانٍ أبعد تساعد البلاد على إيجاد مستقبل فكري ومعرفي لا يعيد التاريخ ويعود به إلى الكارثة نفسها التي كرّرها خلال سبعة عقود. كارثة العاطفة التي تقف وراء قيامة «البعث» وبعث الإسلاميين وتخبط ورثة لينين. لا يمكن للعراق أنْ ينهض فكرياً إلى مدى أبعد إن بقي فقيراً لمرجعيات بديلة. هذا ينطبق على أكثر البلدان العربية، غير أن الواضح، وسط هذه الفوضى، أن المشتغلين في الثقافة العراقية وزملاءَهم ما يزالون حجرَ الزاوية الوحيد في مواجهة أحزاب منظومة النهب وشبكة المليشيا وبائسي الحنين للماضي.

(كاتب وإعلامي عراقي)

> لا يمكن للعراق أنْ ينهض فكرياً إلى مدى أبعد إن بقي فقيراً لمرجعيات بديلة. هذا ينطبق على أكثر البلدان العربية

> ما يمكن تسميتها النخبة أو النخب، خصوصاً بعد 2010، لقنتْ أحزابَ السلطة دروساً في المعارضة لم يعتد العراق عليها

انقلاب قيس سعيّد في غياب المحكمة الدستورية العليا

أحمد جبر

عندما حقق الرئيس التونسي قيس سعيّد زلزالاً انتخابياً بفوزه الساحق في الجولة الثانية من الانتخابات الرئاسية التونسية في أكتوبر/ تشرين الأول 2019، ضد منافسه نبيل القروي، تشكلت بارقة أمل لتونسيين عديدين شعروا بالانتصار على الأحزاب السياسية المسيطرة من جهة، وعلى سيطرة الأموال المتمثلة بالقروي من جهة ثانية. إلا أن هذه الفرحة لم تدم طويلا، حيث اعترضت عقبات سياسية عديدة ولاية الرئيس الجديد، لم يستطع تذليلها بل زاد من حجمها وأثرها بهفواتٍ وانتكاساتٍ وقراراتٍ لم تتسم بالحكمة السياسية، فقد كانت البداية في اليوم الذي تقدمت مجموعة من الكتل البرلمانية بلائحة لسحب الثقة من حكومة إلياس الفخفاخ، حيث أعلن سعيّد أن الأخير تقدم باستقالته إليه، مستبقاً خطوةَ سحب الثقة عن طريق البرلمان بإعلانه قبول الاستقالة، ما أعاد إليه، دستورياً، أولوية تكليف رئيس جديد لتشكيل الحكومة، حارماً الكتلة البرلمانية الأكبر من ذلك.

من ثم جاء تكليف هشام المشيشي، لتستمر حكومته مع المشكلات نفسها المرتبطة بالتفسير والتأويل الدستوري لطريقة التكليف وحدود الصلاحيات ومرجعية النظر بين البرلمان ورئاسة الدولة. مشكلات دستورية يؤولها كل ضلع من أضلاع مثلث السلطات، بما يتناسب مع مصلحته وتوجهه، من دون إمكانية حسم التأويل لمصلحة أحد، بغياب الناظم لهذه الخلافات (المحكمة الدستورية العليا). وحصل تكليف المشيشي من دون تشاور مع الأحزاب السياسية، ما صدّر المشيشي رجل الرئيس وحكومته حكومة الرئيس. إلا أنه وفقاً للدستور، لا يمكن لأي حكومة ممارسة مهامها من دون نيل ثقة البرلمان، ما دفع المشيشي إلى التنسيق مع الأغلبية البرلمانية لتمرير حكومته، مقدّماً تنازلات لصالح حلفائه الجدد في البرلمان، تتعلق بإعادة هيكلة الحكومة. ووفّر هذا التحالف الجديد له مجالاً للمناورة السياسية. وفي المقابل، سرع في توتير علاقته مع الرئيس سعيّد والأحزاب التي تقف إلى جانب الرئيس، في غياب التوافق بين الأخير وأغلبية النواب.

وبدأ تعطيل عمل حكومة المشيشي برفض سعيّد مثول أعضائها أمامه لتأدية اليمين الدستورية، حارماً إياها من إجراء شكلي غير جوهري كما هو الحال بمنح الثقة البرلمانية، رفضٌ رأى به نوابٌ وفقهاء قانون كثيرون أنه ليس من حق الرئيس دستورياً، إلا أن الرئيس سعيّد برّر موقفه أن الدستور يمنحه حق الامتناع عن قبول أداء اليمين من وزراء يتهمهم بالفساد.

خلاف آخر بشأن تأويل الدستور لا يمكن البتّ به في غياب المحكمة الدستورية العليا. وقد رفض الرئيس سعيّد تقديم أسماء الوزراء الذين يتهمهم بالفساد، على الرغم من طلب المشيشي المتكرّر، فتسميتهم قد تضعه تحت طائلة المساءلة القانونية، إذا حكم القضاء بعدم صحة التهم الموجهة إليهم. هذا ما جعل رئيس الحكومة عاجزاً عن إقالة أيٍّ من وزرائه لهذا السبب، من دون تسلم أسماء من وصفهم سعيد بالفاسدين، فما ضمان أن الرئيس لا يقصد غيرهم.

انسداد أفق الحل السياسي في تونس والتأويلات المختلفة والمتناقضة للدستور، وعدم قدرة «الهيئة الوقتية لمراقبة دستورية مشاريع القوانين» على البتّ بنزاعات الصلاحيات بين السلطات، لاقتصار عملها وصلاحياتها على الرقابة الدستورية لمشاريع القوانين فقط، أعاد هذا الانسداد إلى الواجهة ضرورة الإسراع بتشكيل المحكمة الدستورية العليا. وفي محاولةٍ غير جدّية من البرلمان، ورفض حثيث من الرئيس سعيّد، فشل مرة أخرى تشكيل المحكمة الدستورية العليا، ليأتي انقلاب سعيّد غير المسبوق وعقب اجتماع طارئ (عقده في قصر قرطاج) مع مسؤولين أمنيين وعسكريين، أعلن الرئيس التونسي تجميد اختصاصات البرلمان ورفع الحصانة عن نوابه وإقالة رئيس الحكومة هشام المشيشي، كما قرّر تولي السلطة التنفيذية بمساعدة رئيس حكومة يعيّنه بنفسه، وتولي رئاسة النيابة العامة لتحريك المتابعة القضائية ضد من تحوم حولهم شبهات فساد. واعتبر أن خطوته هذه جاءت تلبية لضرورات المصلحة العامة ومتسقةً مع الدستور التونسي، وتحديداً مع المادة 80. ولذلك لم يعلن الرئيس سعيد حل البرلمان وإنما تجميد اختصاصاته، حيث لا يمنح الدستور الرئيس الحق بحل البرلمان إلا في حالة واحدة تكون مرتبطة بعدم حصول الحكومة على ثقة البرلمان، وهي وضعية غير متوفرة حالياً لحصول حكومة المشيشي على هذه الثقة. إلا أن استناد الرئيس سعيّد إلى المادة 80 من الدستور التي تعطيه الحق باتخاذ التدابير الاستثنائية، في حال افترضنا أن تونس تتعرّض لخطر داهم لا يمكن معه السير الطبيعي لمؤسسات الدولة؛ تمنعه من تجميد اختصاصات البرلمان، حيث تفرض المادة المذكورة أن يكون البرلمان في حالة انعقاد دائم. وبالنسبة لإقالة المشيشي، لا يعطي الدستور رئيس الجمهورية الحق بإقالة رئيس الحكومة، وإنما اكتفى بإعطاء الحق له بالطلب من البرلمان التصويت على الثقة الممنوحة للحكومة، ومرتين على الأكثر خلال ولايته لرئاسة الجمهورية (مادة 99 من الدستور التونسي). كما أنه، وبحسب الدستور، لا تعتبر الحكومة مسؤولة أمام رئيس الجمهورية، وإنما أمام البرلمان (مادة 95). كما أن رئيس الحكومة المزمع تسميته بدلاً من المشيشي لا يمكنه ممارسة مهامه ومهام حكومته دستورياً إلا بعد منح الثقة البرلمانية، وهذا شرط يبدو بعيد المنال، بعدما أغلقت المؤسسة العسكرية أبواب البرلمان في وجوه النواب.

ومخالفة سعيّد الدستورية الثالثة كانت بتعيين نفسه في منصب النائب العام الجمهوري. صحيحٌ أن الدستور أعطى رئيس الجمهورية صلاحية تسمية القضاة، وعلى فرض أن الرئيس سعيد قرّر تحقيق سابقة قضائية بتسمية نفسه، إلا أن هذا الأمر لا يتم إلا بناءً على رأي مطابق من المجلس الأعلى للقضاء (مادة 106 من الدستور)، وهذا ما لم يتوفر بقرار الرئيس سعيد. والمخالفة الدستورية الرابعة والأهم أنه في غياب المحكمة الدستورية العليا لا يمكن تفعيل المادة 80 من الدستور، وذلك لغياب شرط شكلي يتمثل بإعلام رئيس المحكمة الدستورية العليا. وشرط جوهري، حيث حصر الدستور صلاحية إيقاف التدابير الاستثنائية أو تمديدها فقط بالمحكمة الدستورية العليا التي حرص سعيّد على عدم تشكيلها.

صحيحٌ أن في وسع أي قانوني ملاحظة المخالفات الدستورية في القرارات المتّخذة من الرئيس سعيّد بناءً على تفعيل المادة 80 من الدستور، إلا أن الهيئة الوحيدة المخوّلة في البتّ بدستورية أي قرار أو قانون قائم أو مشروع قانون أو نزاع السلطات هي المحكمة الدستورية العليا، المعطل تشكيلها منذ أقر تشكيلها وحدد هيكلتها ومهامها وصلاحياتها دستور عام 2014، (مواد 118 – 124)، محكمة لم يكتب لها أن ترى النور بسبب عدم قدرة البرلمان على انتخاب سوى عضو واحد من أصل الأعضاء الأربعة الذين عليه انتخابهم. فلو أنه كان قد جرى تشكيل المحكمة الدستورية العليا لما وصلت تونس إلى انسداد بأفق الحل السياسي، فالصراع السياسي والتجاذب والتحالفات والانقلاب على التحالفات حالة شائعة في النظم الديمقراطية البرلمانية، إلا أن غياب المحكمة الدستورية العليا في تونس سمح لكل طرف من أطراف الصراع السياسي بتأويل نصوص الدستور لمصلحته، والأخذ بجزء من النص وإهمال أجزاء أو نصوص أخرى.

لم يتوقف الرئيس سعيّد عن تهديد خصومه السياسيين بالقوى العسكرية والأمنية، وفي نهاية المطاف، طبق تهديده ليفتح الباب على مصراعيه لهذه المؤسسة التدخل في الشؤون السياسية والمدنية، تدخّل لن يكون في وسع سعيّد نفسه لجمه مستقبلا، وفي أحسن الأحوال، سيرضى على نفسه أن يتحوّل إلى دميةٍ بيد المؤسسة العسكرية.

كل هذه الحيثيات تجعل من التهم الانقلابية محقّة بحق سعيّد، وإن نفيه لها لا يمكن أن يكون من خلال تصريحات شعبوية جوفاء، وإنما بأفعال جدّية تبدأ بالتراجع الفوري عن الانقلاب الأخير، والدعوة إلى مؤتمر أو حوار وطني شامل يؤسّس لمنع تدخل الجيش بالحياة المدنية وبقائه على الحياد، مؤتمر يضمن تشكيل المحكمة الدستورية العليا التي تكون قراراتها ملزمةً لكل أطراف الصراع في تونس.

(كاتب فلسطيني)

> التهم الانقلابية محقّة بحق سعيّد، وإن نفيه لها لا يمكن أن يكون من خلال تصريحات شعبوية جوفاء

> غياب المحكمة الدستورية العليا سمح لكل طرف من أطراف الصراع السياسي بتأويل نصوص الدستور لمصلحته

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

نائب رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads